ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة افاق للعلوم
Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351

المجلد:06 العدد: 02(2021) ص 51-64

النموذج المكي للمساجد والجوامع الإباضية بجزيرة جربة

The Meccan model of the Ibadi jamii's and mosques on the island of Djerba

د. أبولبابة مطر

المعهد العالي للفنون والحرف بتطاوين
جامعة قابس (تونس)

boulbaba.mtar@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
26 ديسمبر 2020
تاريخ القبول:
19 جانفي 2021

الكلمات المفتاحية:
- ✓ إباضية
- ✓ محراب
- ✓ مئذنة
- ✓ زخرفة

الملخص:

تبين معظم نماذج الجوامع على أنّ رمزية العمارة مزدوج فيها. فلها بعد أفقي دنيوي وإنساني يدخل في باب التجربة والطقوس ويتصل أساسا بالصلاة وبالاتجاه نحو الكعبة وبوحدانيّة الله وبخصوصيّة مخلوقاته الحيّة. ولها بعد ثاني عمودي متصل بالعالم الغيبي الإلهي، وتظهر عليه علامات العظمة والتعالي والقوة. وقد استعملت لذلك عناصر وعلامات أعطت فضاءات ذات دلالات رمزيّة واضحة.

أمّا في ما يخصّ عمارة الإباضيّة بجزيرة جربة فإنها بيّنت قدسيّة الطقوس كالصلاة والمعرفة باعتبارهما أساس الدّين وبقيت في مستوى أفقي دنيوي إنساني. وقد تميّزت هذه العمارة بتذكيرها بالمبدأ الأصلي للأشياء كاتخاذها الكعبة مثالا يقتدى به في بيوت الله من جهة، وبإبقائها على طابع الزهد والبساطة والانفتاح على الآخر والسلميّة الظاهرة من خلال المبنى عبر اللون والحجم والأشكال الواضحة من جهة أخرى.

Article info

Received
26 December 2020
Accepted
19 January 2021

Keywords:
- ✓ *Ibadi*
- ✓ *Kaaba*
- ✓ *Jamii*
- ✓ *Jerba*

Abstract :

Most mosque models show that the symbolism of architecture is doubled in them. They have a horizontal, worldly and human dimension connected to events and rituals, and it's related mainly to prayer, the direction towards the Kaaba, the oneness of God and the specificity of creatures.They also have a second vertical dimension connected to the unseen divine world, and it shows signs of greatness, transcendence and strength. For that, elements and signs were used to give spaces with clear symbolic connotations. As for the Ibadi architecture on the island of Djerba, it demonstrated the sanctity of rituals, such as prayer and knowledge, as they are the basis of religion and remained at a horizontal, worldly, human level.

. مقدمة:

نشأت الفرقة الإباضية مع بداية الإسلام في العراق وانتشر المذهب في ربوع العالم الإسلامي العربي من مشرقه إلى مغربه، من اليمن إلى شمال إفريقيا. وأقام الإباضية دولا مستقلة في اليمن وحضرموت وعمان التي ما تزال إباضية إلى العصر الراهن، والجزائر تحت إمامة الدولة الرستمية. ومع سقوط الأخيرة تراجع المذهب الإباضي وأصبح أتباعه من ضمن الأقليات التي فضلت التخفي والكتمان بعد كل ما شهدته من معارضة من الشيعة ثم من المذهب السني المالكي. وفضل إباضية شمال إفريقيا الاستقرار في جهات كفيلة بتحقيق اكتفاءها الذاتي والاستقلالية التامة عن العالم الخارجي كميزاب وجربة ونفوسة. حيث انكب علماء الإباضية على كتابة كل ما يتعلق بالدين الإسلامي وبتنظيم حياتهم الاجتماعية.

وقد عاش الإباضية في شمال إفريقيا بنسق اجتماعي يجمع فرقا صغيرة لها عاداتها وتراثها الخاص. واستقطب الفكر الإباضي الأمازيغ أكثر من غيرهم، فقد وجدوا في الفكر الإباضي خصوصية وقربا من عادات عيشهم، جعلهم يدخلون في الدين الإسلامي عن طواعية. كما بنوا جوامع ومساجد تعكس هذا النسق الاجتماعي والفكر الديني لديهم.

خاصيّات العمارة الدينيّة الإباضيّة:

تاريخ إباضية جزيرة جربة:

عانى سكان جربة قبل الإسلام من الرومان والبيزنطيين الذين أراقوا فيها الدماء وجالوا فيها بكل بطش وضيقوا المعيشة على سكانها الأصليين بالإكثار والرفع من قيمة المكوس والضرائب. ساهم هذا التاريخ المظلم في تقبل سكان جربة للإسلام برحابة صدر لما وجدوا فيه من عدل ورحمة وإنصاف لحقوقهم، فاعتنقوا الإسلام وانضموا للجيوش المسلمة التي سعت إلى طرد البيزنطيين والروم من الجزيرة. ولم تعرف جزيرة جربة ردة أهلها عن الإسلام الذي اطمئنوا إلى مبادئه وعملوا بتعاليمه. ولم يثبت أن رويفع ترك فيها من جنده أحدا وإنما أوكل أمرها إلى أهلها بعد أن تأكد من حسن إسلامهم وطيب نواياهم. وعاشت جزيرة جربة مستقلة استقلالا داخليا لاستقرار الإسلام فيها منذ أول فتحها.

لم تكن جربة تابعة لحكومة طرابلس ولا للقيروان، بل بقيت منعزلة عن حكام الدولة الأموية. فلم تشترك في الخلافات التي كانت تحصل حينئذ، وحافظت على الحياد والسلام. وقام علماؤها بإنشاء المدارس في كامل أرجاء المدينة بغية تعليم الدين الجديد وتعليم اللغة العربية لسكانها الذين كانوا يتكلمون الأمازيغية.

وقد اتبع مشايخها أئمة طرابلس ونفوسة وتاهرت وخاصة منهم الإمام عبد الوهاب بن رستم، ثاني حكام الدولة الرستمية التي تأسست في تاهرت سنة 160 هـ. وكانت جربة قد انضمت إلى المذهب الإباضي سنة 95 هـ على يدي الداعية سلمة بن سعد قبل أن تدخلها فرقتا الخلفية ومستاوة واللتان تعتبران من النكار. إذ تنكر كلتا الفرقتين إمامة عبد الوهاب الرستمي أو ما يسمى بالوهبيّة، ولم تخالف في العقيدة ولا في شيء من أمور الدين وإنما خالفوا في مسائل مخصوصة.[1]

ودخل أبو مسور جربة قادما من موطنه الأصلي بتاهرت في أواخر القرن الثالث الهجري فوجد الوهبيّة والنكار يجتمعون في مجلس واحد رغم خلافاتهم. فترأس أبو مسور الوهبيّة ودافع عنها وجمع شتاتها واعتنى بأهلها ومجتمعاتها حتى جعل منها الفرقة الأقوى عددا ونفوذا. وانتشرت مدارسها في جنوب غرب الجزيرة جهة آجيموتيواجنوقلالةوجعبيرةوربانة وغيرها. وتداول أبناء أبي مسور على الإمامة وعانوا من هجمات الدولة الصنهاجية خاصة بعد انقراض الإمامة الرستمية سنة 296هـ، وفكروا في إرساء نظام[2] يحميهم ويحفظ كيان الإباضية دون الخروج عن طاعة السلطان.

مساجد جزيرة جربة وخاصياتها:

تمتلك جربة تراثا معماريّا إسلاميّا فريدا من نوعه يشمل كلّا من العمارة الدينّية والعمارة المدنيّة وتمثّل العمارة الدينيّة وخاصة المساجد أهم ما يميّز هذا التراث من أوجه عديدة إذ يقدّر عدد الجوامع ب288 معلما (166 مالكي و122 إباضي) حسب إحصاء أجري أواسط هذا القرن[3]. وتمثّل هذه المعالم حقبات تاريخية إسلاميّة للجزيرة من حيث تعبيرها عن قيم وتطوّرات غالبيّة المجتمع الإباضي التونسي الّذي وجد في هذه الجزيرة ملاذا له.

تتميّز مساجد جربة بتخطيطها المنفتح إذ يتألّف المعلم من وحدات معماريّة منها ما هو مخصّص للشعائر أساسا كالمساجد والبرطال ودكّات الصّلاة الإضافيّة ومنها ما هو مخصّص للطهارة كالميض ومنها ما هو مخصّص للإقامة كالغرف أو للتّدريس كالكتّاب أو للأنشطة الاقتصادية كمخازن المؤن أو للخدمات الاجتماعية الأخرى كالمطابخ وغيرها. وميزة هذه الوحدات أنها متناثرة في فضاء مبلط يحيط بالمعلم المركزي المربّع والمطلي بالجير الأبيض ومعد لتجميع المياه التي تخزن في مواجلوفسقيات ، ويحيط بها جميعا سور قليل الارتفاع يمكّن من رؤية جميع الوحدات من الخارج ويطلّ على الأراضي الفلاحيّة المغروسة أساسا بأشجار الزيتون والرمّان والنّخل والتّين والكروم ويسمّى السيرّة.

تتميّز مساجد جزيرة جربة بتنوّع ملفت للانتباه إذ يبدو لأوّل وهلة أنّ كل معلم يمثّل نموذجا في حدّ ذاته ويمكن أن نتبيّن صنفين رئيسيين من المعالم. يعبّر الصنف الأوّل المكوّن من المساجد المنقورة عن تواصل بين التقاليد البربريّة القديمة والعمارة في الحقبات الإسلاميّة الأولى. ويعتبر هذا الصّنف أقدم ما عرفته الجزيرة، وتتدرّج هذه المعالم من المنقورة كليّا في الصّخر والمنحدرة من حيث تخطيطها مباشرة من القصور البربريّة إلى المعالم المنقورة كليّا في الصّخر وذات التخطيط المتطابق مع التخطيط الكلاسيكي للمساجد الإسلامية إلى المعالم المنقورة جزئيّا في الصّخر والمقامة بمواد البناء المحليّة والمتداولة.

أمّا الصّنف الثّاني المكوّن من المساجد الناتئة فهو متنوّع من حيث النّاحية الإنشائيّة والوظائفيّة والموقع، إذ توجد مساجد الشواطئ الّتي تؤدي دور نقاط المراقبة والإنذار المبكّر وتتميّز بصغر حجمها. وتوجد المساجد المحصّنة وهي بمثابة حصون قريبة من السّواحل وتتميّز بأسلوبها الإنشائي المتين وبتجهيزات دفاعية متميّزة كالسقّاطات والجدران الدفاعيّة وكوى الطّلق، وتوجد المساجد العلميّة المتميّزة بتعدّد ملحقاتها من غرف للطلبة وغرف تدريس وخدمات اجتماعيّة وأخيرا مساجد الأحياء وهي المعالم المخصّصة للاستعمال المحدود ضمن أصغر خليّة اجتماعيّة تنظّم الفضاء الاجتماعي وهي الحومة.[4]

تتميّز الجوامع الإباضيّة بروح البساطة لكن ذلك لا يمنع من وجود بعض الأعمال الزخرفيّة المتميّزة من حيث أسلوبها العام المعتمد على الأشكال الهنديّة دون سواها كالمثلّثات والمعيّنات والدوائر وأنصاف الدّوائر، وهذا أسلوب لا نجد له مثيلا في الفنون الزخرفيّة الإسلاميّة الكلاسيكيّة. من جهة أخرى تحتوي هذه المساجد على مجموعة مهمّة من النّقوش محليّة الصناعة والّتي تحتوي إضافة إلى تأريخها للمعالم على معطيات اجتماعيّة وسياسيّة هامّة. وتبرز جوامع جربة لأوّل وهلة كأنّها مباني عفويّة الطّابع بينما تدلّ في عمقها عن جماليّة مصدرها حسن التّناسق ووجود علاقات نسبيّة واضحة في مختلف الوحدات المعماريّة أو في تنفيذ مختلف العناصر الإنشائيّة.

المنابر وتعدّد المحاريب:

تتمثّل المحاريب الإباضية في أشكال ذات طابع وظيفي بحت فهي مجرّد تجويفات في حائط القبلة تدّل على اتّجاه مكّة وقبلة المصلّين، ولكنّها تتميّز بخاصيّة التعدّد فكثير من مساجد جربة تحتوي على محرابين متجاورين[5] في بيت الصّلاة وذلك دون احتساب المحاريب المنعزلة الأخرى الموجودة في حرم المسجد حول بيت الصّلاة. ويحتوي جامع أبي مسور على العدد الأكبر من المحاريب، فهو يضمّ خمسة محاريب أحدها في بيت الصّلاة و أربعة*منعزلة* متفرّقة في حرم الجامع، وتميّز هذه المحاريب ببساطتها الشديدة وصغر حجمها ووجودها في فضاءات مفتوحة دون أسقف.[6]

صورة 1. تعدد المحاريب

ولئن كانت المنابر عنصرا أساسيّا في مكوّنات الجوامع خاصّة لتأدية خطبة الجمعة فإنّ الأمر مختلف في أغلب الجوامع الإباضيّة خاصّة بعد سقوط الدّولة الرّستميّةبتاهرت إذ ألغى الإباضيّة خطبة الجمعة بسبب دخولهم في فترة الكتمان وعدم وجود أئمّة مستقلّين لترؤس مجتمعهم. ولكن ظهرت منذ القرن التاسع عشر وبالتحديد في مساجد جربة بعض المحاريب، إذ فرضت الحكومة التونسيّة على الإباضيّة تأدية صلاة الجمعة باسم الباي. وأقام الإباضيّون صلاة الجمعة وألقوا الخطب ولكن دون الصلاة فقد كانوا يصلّون الظهر بعد الخطبة. وعرفت جربة بعض المنابر المتحرّكة الّتي كانت توضع في الرّكن بعد استعمالها وذلك لغياب فضاء حائطي يحتويها بعد انتهاء الخطبة.[7] ويوجد في جامع فضلون منبر مبني ذو ثلاثة درجات مطلي بالجّير الأبيض وخال من أي مظهر من مظاهر الزّخرفة.

المآذن:

لم تعرف المساجد الأولى في الإسلام وجود المآذن فقد كان المؤذّنون يعتلون على مدرجات خارجية في ركن من أركان المسجد لرفع الأذان، وقد وجد هذا الأنموذج البدائي في جامع تلاكين بجربة حيث تمّ بناء درج للمؤذّن وكان ذلك قبل تشييد المئذنة الحاليّة. لا توجد المآذن في كلّ جوامع الجزيرة ولا يرتبط ذلك بحجمها ولا بموقعها. ويتّبع أغلبها إن وجدت شكل مآذن شمال إفريقيا أي مربّعة الشّكل وتحتوي على مدرج تعلوه مشكاة. وقد تأخذ هذه المآذن شكلا حربيّا بحيث تمكّن الأفراد من الصّعود على بيت الصّلاة والدّفاع عن أنفسهم بفضل السقّاطات خاصّة في الجوامع المحصّنة.

مئذنة منخفضة

مئذنة رمزية ممشوقة

غياب المئذنة

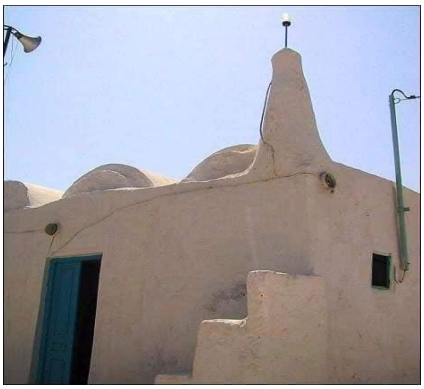

رمز للمئذنة

صورة 2 مآذن إباضية بتصورات مختلفة

وتتميّز المآذن الإباضيّة بقلّة ارتفاعها وضخامة حجمها وقد تشيّد أحيانا بطريقة رمزيّة دون أي دور وظيفي كمئذنة جامع بوليمان ومئذنة جامع سيدي جمور، وتتميّز المشكاة الّتي تعلوها بطابعها التقليدي وحجمها الصغير فهي لا تسمح للمؤذّن بالدّخول تحتها ولا تبدو عليها أي زينة أو زخرفة. وتتشكّل المشكاة عادة من أربعة أعمدة دقيقة وقليلة الارتفاع تشكّل في أعلاها حجما نصف كروي تعلوه قمّة مخروطة الشّكل.

غياب الزّخرفة:

ترى الإباضية في عدم استعمال الزّخرفة شكلا من أشكال العدل بين المسلمين فقد اختار الإباضيّون البساطة في كلّ أنظمة حياتهم الاجتماعيّة ولا شيء عندهم يميّز مبنى عن آخر إلّا الوظيفة أو بعض العلامات والرّموز المحتشمة والبسيطة إلى أبعد الحدود. ويقول المؤرّخ الأمريكي جاي بيتربريدج (*Guy Petherbridge*) 1944 في ذلك:

"يجب ربط هذه الخاصيّة المعماريّة بالأخلاقيات الخاصّة بالإباضيّة وبعقيدتهم الدّينيّة الّتي ألزمتهم بالقطع مع الزخرفة وبعدم التّفرقة بين المباني."[8]

تعتبر الإباضيّة أن الزّخرفة والزّينة في الفضاءات الدّينيّة تؤثّر في علاقة العبد بربّه ويمكنها أن تمسّ بالصفاء الفّكري والخشوع. وتعتبر الزخارف النادرة الموجودة شاهدا على أقصى درجات التّجريد ولا تتجاوز بعض الأشكال الهندسيّة البسيطة والمعزولة أو المركّبة كالخطوط المتقاطعة وسد الدوائر أو النجمة السداسيّة أو يد مطبوعة دون لون والّتي يستعملها الأمازيغ منذ العصر الحجري الحديث وقد تكون لها دلالات

ذات وشائج بالسّحر في الأصل ولكنّها فقدت معناها مع الزّمن وتمّ استعمالها في الجوامع الإباضيّة رغم أنّها ليست على صلة بالفنون الزخرفيّة الكلاسيكيّة.[9]

صورة 3 غياب كلي للزخارف

رمزية عمارة جوامع وجزيرة جربة:

1. الأصل والتّحديث في المقدّس:

سنحاول في بادئ الأمر أن نعرّج على أصول الجوامع وميزاتها لأنّ أغلب البّاحثين يعتبرون أنّ جوامع الإباضيّة تستمدّ شكلها من المسجد النّبوي الأوّل في المدينة وهي بذلك تستمدّ رمزيتها من اتّباع هذا الأنموذج المسمّى بالأنموذج العربي. لا ننكر بأنّ الإباضيين اتّبعوا إلى حدّ ما هذا النّموذج ولكن اتباعهم لم يتعدّ بناء المحراب في حائط القبلة، وتعويض الظلّات بالبائكات في جوامع الأغالبة مثلا.

فإذا ما اطلعنا على المساجد الإباضيّة بجربة فإننا نجد أنّ معظمها مربّعة الشّكل تقريبا وعديمة الزّخرفة وذات أسقف منخفضة نسبيّا، وهي تفتح بباب واحد وتكاد تخلو من النّوافذ. ولا تحتوي على صحن فهي محاطة بفضاءات ذات أشكال مختلفة مفتوحة وغير مسقّفة. لا تحتوي أغلب المساجد على مآذن وإن وجدت فهي حديثة وقليلة الارتفاع وتستعمل برجا للمراقبة أو مدرجا للسطح أكثر مما تستعمل لرفع الأذان. وتدعّم بيوت الصّلاة دعّامات حائطيّة مختلفة وخاصّة الركنيّة منها.

تذكّرنا هذه الأمثلة الهندسيّة بأنموذج الكعبة الّتي قال فيها القرآن:

"إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ"[10]

وهكذا نلاحظ أنّ الإباضيّين تمثّلوا الكعبة باعتبارها الأصل في بيوت الله واقتبسوا منها رباعيّة شكلها وارتفاعها المتناسب مع طول الإنسان وعدد مداخلها ونوافذها، ووضعوا بيت الصّلاة وسط حرم سمّوه بالرّحبة ولم يتبّعوا المثال المحوري الّذي ميّز النّموذج العربي للجوامع.

ولئن كانت الكّعبة ترمز إلى مركز الكّون[11] فإنّ الجوامع الإباضيّة ترمز إلى مركز المجتمع وتحيط بها فضاءات تتدرّج نسبيّا من المقدّس إلى المدنّس ويفصل بينهما سور قليل الارتفاع يحفظ حرمة الجامع ويبيّن حدود المكان المقدّس.

الأنموذج الأصلي	الأنموذج المُحدث

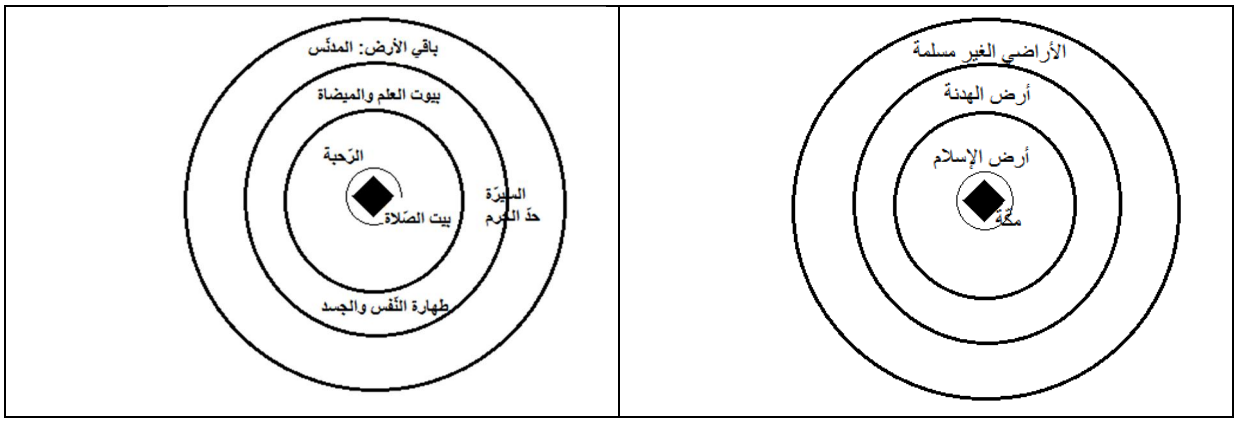

رسم بياني 1. تحديث أنموذج الكّعبة في الجوامع الإباضيّة

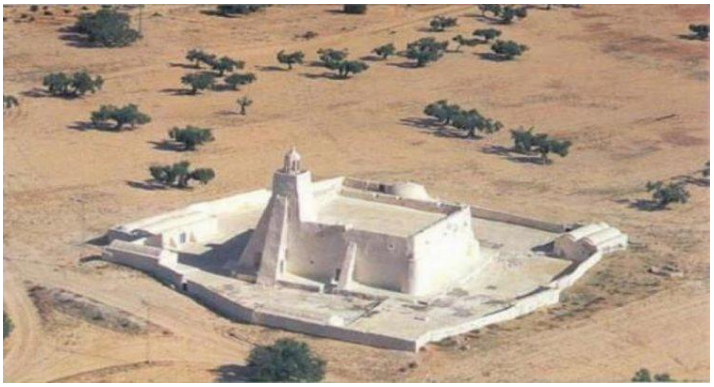

صورة 4 توسط بيت الصلاة للحرم (الرحبة) في الجوامع الإباضية وانخفاض السيرّة التي ترمز للحد

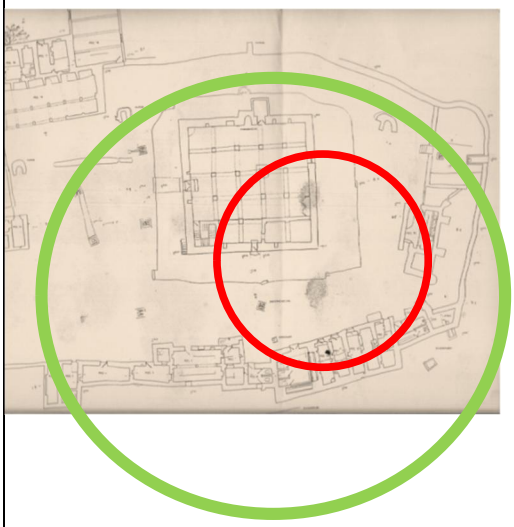	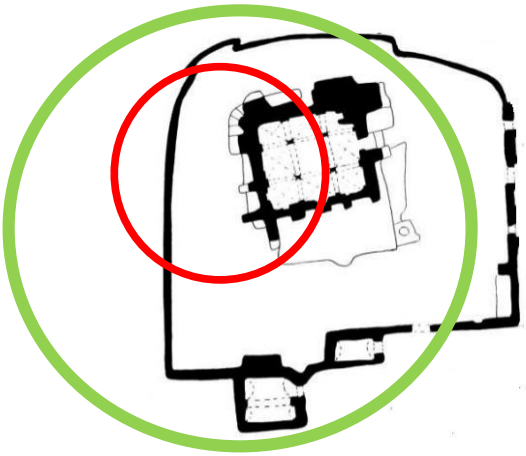
الجامع الكبير أبو مسور بحشان	جامع فضلون بخزرون

صورة 5. صور تبيّن موقع بيت الصّلاة وسط الحرم الجامعي (الرّحبة)

وقد أعطى الإباضيّون أهميّة خاصّة للأركان الموجودة بالكّعبة (الرّكن اليماني والرّكن العراقي والرّكن الشّمالي والرّكن الغربي) ورمزوا إليها بدعّامات ذات أشكال وأحجام مختلفة فمنها الدّائري المدرّج ومنها المنحني العمودي والمنحني المفتوح بممرّ ذي عقد. ويُذكر أنّ لهذه الدعّامات وظيفة إنشائيّة تسمح بتدعيم الحيطان العريضة على أنّ ما يشير إلى بعدها الرّمزي المرتبط بأركان الكّعبة هو علامات الثّراء والتجديد والاختلاف الملحوظة في أشكالها وأحجامها.

جامع تلاكين بغيزن

جامع بوليمانبجعبيرة

جامع ابن دعلي حومة واد الزبيب

جامع فضلون بخزرون

صورة 6. أمثلة للدعّامات الركنيّة.

ولعلّ تمثّل الإباضية لمثال الكّعبة في بناء مساجدهم تنطلق من الأخذ بعين الاعتبار المضايقات الّتي عرفوها وتصنيفهم ضمن الخوارج، ذلك التّصنيف الّذي رفضوه بشدّة واعتبروا أنفسهم النّموذج بعودتهم للأصل وتجاوزوهم كل أشكال التّميز العقائديّة والسّياسيّة التي أقامها المسلمون. وكانوا يحملون رسالة تجاه المسلمين تدفعهم إلى إبراز موقفهم العقائدي وانتمائهم السّياسي بكلّ الأساليب.

قداسة الوّحدة الإلهيّة وازدواجيّة الكّون:

يعتبر التّوحيد والتوجّه نحو الله وحده أساس العقيدة الإسلاميّة وقد تفانى المفكّرون المسلمون كلّ من مجاله في التعبير عن هذا المبدأ. تبدو رمزيّة الوحدة الإلهيّة ماثلة وبقوّة في العمارة الإسلاميّة عامّة وفي عمارة الجوامع خاصّة وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بكثير من العلامات كالعدد واحد والنقطة والمركز والمحور والنسق والاختلاف، وهي إلى ذلك لها صلة ببعض صفات الله كالعالي والأكبر والواحد.

ولكن ربط الإباضيون عمارة جوامعهم بكلّ ما هو إنساني وأرضي متفادين بذلك كلّ ما من شأنه أن يرمز إلى الله ووحدانيّته وإلى السّماء والجنان وإلى ازدواجيّة الكون بين الإلهي والإنساني. فقد بنوا مساجد يغيب فيها العدد واحد تقريبا في العناصر المعماريّة الأساسيّة المكوّنة للمساجد، فاستعملوا محاريب متعدّدة تقريبا في كلّ الجوامع منها المجانبة لبعضها في بيوت الصّلاة ومنها المنعزلة والموجودة إمّا في الرّحبة أو على الدكّات.

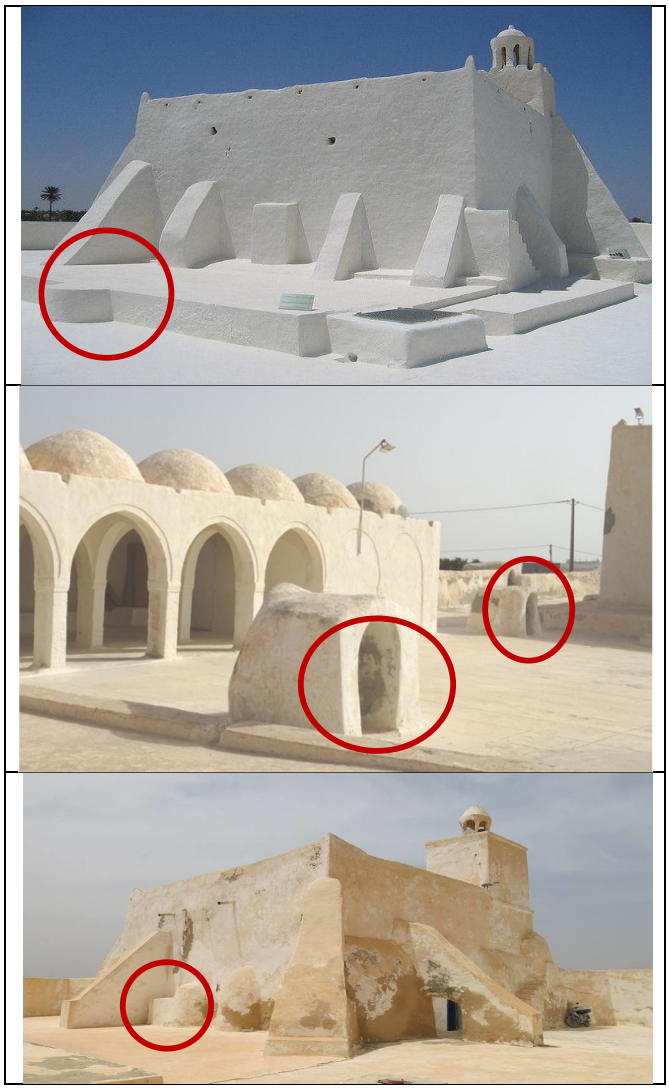

صورة 7 تعددية المحاريب بالجوامع الإباضية

يمكن قراءة رمزيّة تعدّد المحاريب بأنّها مخالفة لفكرة أنّ الله موجود داخل المحراب أو من الجهة الأخرى للعقد الّذي يميّز شكل فتحة التجويف الحائطي وهكذا فإن غياب المحراب الواحد يحول دون تصوّر الله في مكان ما وترسيخ فكرة أنّ الله أعلى وأوسع من أن يتمّ تخيّله أو تحديد مكانه. وتعطي تعدّديّة المحاريب للمحراب رمزه ووظيفته الأساسيّين واللّذين يكمنان في تحديد وجهة القبلة وتخصيص تجويف يسمح للإمام بالسّجود داخله وهو ما يمكّن من إضافة صفّ آخر للمصلّين خلفه.

تظهر فكرة عدم تصوّر مكان الله أو تشبيهه بصفاته الّتي قد توحي ماديّا وبطريقة رمزيّة بالعلوّ والكُبر والوسع في شكل المآذن فتبدو إمّا رمزيّة تشير إلى مكان الصّلاة أو وظيفيّة تسمح بالصّعود إلى سطح بيت الصّلاة أو للمراقبة. وتحترم هذه المآذن مقاسات الإنسان وتبدو قريبة من الأرض قليلة الارتفاع لا ترمز لا إلى العلوّ ولا إلى الوحدانيّة وإنّما فقط إلى مكان ركن الصّلاة.

من جهة أخرى تخلو المساجد الإباضيّة من كلّ مظاهر الزّخرفة تقريبا فكلّ شيء يبدو مسطّحا تقريبا ويتميّز برطابة ملمسه وبياض لونه رمزا إلى الخلاص والسّلام والفّوز بالجنّة، ولم يتمّ استعمال أي شيء قد يرمز إلى الجنان سواء أكان نباتيّا أو هندسيّا. وقد تلخّصت زخرفة المساجد الإباضيّة إن وجدت في أشكال بسيطة كالنصف دائرة فوق باب بيت الصلاة أو بعض الأشكال الهندسيّة المنعزلة كالمعيّنات والخطوط المشعّة في بعض المحاريب.

أمّا القباب الّتي تغطّي بعض المساجد فهي متطابقة من الدّاخل والخارج، فلا وجود لقبّة متفرّدة أو لقبّة مختلفة عن الأخريات الموجودة في نفس الفضاء، ويرمز هذا التطابق إلى المساواة والعدل بين كلّ البشر ودون أي إيحاء بازدواجيّة الكّون بين السّماوي والسّفلي أو الإلهي والإنساني أو الجنان والأرض. وهكذا تبدو عمارة الجوامع الإباضيّة على شكل فضاءات متراكزة حول بيت الصّلاة الأساسيّة في غياب تام لأي محور عمودي أو أفقي من شأنه أن يرمز إلى عالم علوي أو إلى عالم سفلي مواز ويغيب عنه كذلك التناظر الّذي من شأنه أن يذكّر بأشكال أغلب المخلوقات الحيّة وبكمال خلقها. وتزيد الدعّامات من قوّة رمزيّة بيت الصّلاة، فتحيط بها من كلّ واجهاتها في شكل يرمز إلى مجموعة تساند وتؤيّد وتحافظ على شيء ما في فضاء رباعي أرضي وقريب من الإنسان والطّبيعة.

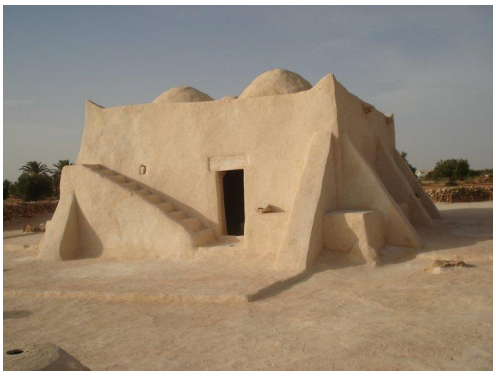

صورة 8 غياب التناظر بالجوامع الإباضية

رمزيّة السّلطة ورمزيّة التخفّي:

تتسّم المساجد الإباضية بقربها من الإنسان والصّلاة وبابتعادها عن مظاهر السّلطة والهيمنة. فقد ركّزت العمارة الإباضيّة على التواصل بما يحيط بها وإن سمّيت الإباضيّة من حيث هي فرقة بدولة الكتمان فإنّ عمارة مساجدها مفتوحة وسهلة القراءة. ويتيح انخفاض الأسوار المحيطة بالمساجد إمكانيّة الاطلاع على مكوّنات المباني من أي زاوية خارجية وملاحظة انفتاح هذه المباني وإشعاعها على ما يحيط بها، وسطوع نقطة بيت الصّلاة وانفتاحها بما باعتبارها مركز على العالم الّذي يحيط بها.

صورة 9. انفتاح الجوامع الإباضية على ما يحيط بها

تمّ التّعبير عن هذا الانفتاح كذلك باللّون الأبيض الّذي يميّز حرم المسجد والّذي يرمز إلى السّلام والتّواصل. ومن جهة أخرى فإنّ افتقار الجوامع الإباضيّة لعناصر ترمز إلى الجانب الحربي والدّفاعي، ماعدا بعض السقّاطات أو بعض عرائس السّماء الّتي توجد في أركان سطح بيت الصّلاة أو في أركان بعض المآذن والّتي لا يفوت عددها الأربع، يؤيّد فكرة انفتاح هذه العمارة وانصهارها مع كلّ ما يحيط بها من مجتمعات وعقائد. و يتأكّد ذلك أيضا في عناصر الزّخرفة المستعارة من زخارف البربر كالمثلثات وأنصاف الدّوائر والمعيّنات ومن رموز اليهود كالنّجمة السداسيّة خاصّة.

صورة 10. البياض رمز السلام في الجوامع الإباضي

الخاتمة:

مكّننا هذا البحث من قراءة المعالم قراءة نابعة منها بالأساس، ومتصلة نسبيّا بالجوانب الفكريّة والإيديولوجيّة الّتي أنتجتها. هذه القراءة لا تسمح لنا بالحديث عن العفويّة في بناء العمارة ولا عن كونها ناتجة فقط عن تقاليد وتقنيات متوارثة ولكن بيّنت لنا بأنّ كل جامع أو مسجد متّصل بالدين الإسلامي من ناحية الوظيفة الّتي يؤدّيها ولكنّه يتبلور في شكل نابع من اختيارات تدور حول رؤى رمزيّة تعكس تصوّرات للمعتقد.

تبين معظم نماذج الجوامع على أنّ تصوّر المقدّس مزدوج فيها. فلها مقدّس *أفقي* دنيوي وإنساني يدخل في باب التجربة والطقوس ويتصل أساسا بالصلاة وبالاتجاه نحو الكعبة وبوحدانيّة الله وبخصوصيّة مخلوقاته الحيّة. واستعملت لذلك عناصر وعلامات وتركيبات أعطت فضاءات ذات دلالات رمزيّة واضحة. وقد عبّرت كذلك عن تصوّر لمقدّس عمودي ميتافيزيقي ومرتبط بالكون العلوي بمحاور عموديّة بفضل عناصر معمارية كعلو المئذنة بالنسبة إلى باقي المبنى وعلامات مطلقة كالنور الذي يضيء قبة المحراب ويرمز للنور الربّاني، والزخارف التي تزيّن القباب سواء أكانت نباتية ترمز للجنان أو هندسية ترمز لميتافيزيقية الكون العلوي واختلافه عن الدنيوي أو كتابية تزخر بآيات من القرآن الكريم بوصفه رمزا للوح المكتوب.

أمّا في ما يخصّ عمارة الإباضيّة بجزيرة جربة فإنّها بيّنت قدسيّة الطقوس كالصلاة والمعرفة باعتبارهما أساس الدّين وبقيت في مستوى أفقي دنيوي إنساني. وظهر المقدّس من خلالها في شكل حلقات دائريّة متراكزة تدور حول الصّلاة والعلم وفصلت بينهما وبين الباقي أو المدنّس بحدود واضحة كعنصر السيرّة الّذي يفصل دون أن يحجب بين المقدّس والمدنّس. وإن ارتبطت الإباضيّة بمبدأ الكتمان فإنّ العمارة الإباضية اتّسمت بانفتاحها وظهورها وسطوعها على ما يحيط بها.

كما تجنّبت عمارة الإباضيّة كلّ عنصر من شأنه أن يرمز للإلهي أو للميتافيزيقي فلا وجود للعدد واحد في المحاريب الّتي تميّزت بتعدّديتها، ولا للعلوّ المبالغ فيه في المآذن من حيث هي عنصر عروج واتصال بالسماء يرمز للوحدة الإلهيّة، ولا للزخارف المبالغ فيها والتي تسعى لتقليد الخلق الإلهي في إتقانه وإبهاره وتناظره ومجازه.

وقد تميّزت هذه العمارة بتذكيرها بالمقدّس الأصلي كاتخاذها الكعبة مثالا يقتدى به في بيوت الله من جهة، وبإبقائها على طابع الزهد والبساطة والانفتاح على الآخر والسلميّة الظاهرة من خلال المبنى عبر اللون والحجم والأشكال الواضحة من جهة أخرى.

المصادر والمراجع:

الكتب العربية:

أحمد البلاذري. فتوح البلدان. مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1959.

رابح بونار. المغرب العربي تاريخه وثقافته، ط 3، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.

رياض المرابط. مدوّنة مساجد جربة، تونس، المعهد الوطني للتراث، 2002.

زكي محمد حسن. فنون الإسلام. مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة،1948.

صالح فركوس. المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفنيقيين إلى خروج الفرنسيين 814 ق.م-1962 م، دار العلوم للنشر والتوزيع.

عبد العزيز سالم. تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامة.

فرحات الجعبيري. نظام العزّابة عند الإباضيّة الوهبيّة في جربة، المعهد الوطني للآثار، تونس، 1975.

مبارك الميلي. تاريخ الجزائر الحديث والقديم، ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.

محمد عبد العزيز مرزوق. الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه. جامعة بغداد، 1965.

نهلة شهاب احمد. تاريخ المغرب العربي، عمان، طبعة 1، 2010.

اليعقوبي. البلدان..دار الكتب العلمية، بيروت.

الكتب الأجنبية:

Al-Yacubi., Al-Buldan, trad. G. Wiet, Le Caire, 1937.

Akkach S. Cosmology and Architecture in Premodern Islam. An Architectural Reading of Mystical Ideas. Albany, State University of New york Press.

Baird G./Jencks Ch. Meaning in Architecture. Barrie & Jenkins, Londres, Royaume- Uni, 1969.
Baldisira E. Al-kitâbât fil masâdjid al-'umâniya al-qadîma, Mascate, Ministère du patrimoine national et de la culture, 1994.
Benkari N. L'architecture des mosquées ibadites au M'zab, Djerba et Oman, vol.I Saarbrücken, Presses Académiques Francophones, 2013.
Benkari N., 2014, L'architecture des mosquées ibadites au M'zab, Djerba et Oman, vol. II, Saarbrücken, Presses Académiques Francophones.
Berebi J / G., 1995, Les mosquées de Djerba, Tunis, Éditions Point Dix Sept.
Bonete Y., 1961, « Notes sur l'architecture religieuse du M'Zab », Cahiers des Arts et Techniques de l'Afrique du Nord, n° 6, pp. 88-102.
Burckhardt T. L'art de l'Islam. Langage et signification, Paris, Sindbad, 1985.
Costa P. M. 2001, Historic Mosques and Shrines of Oman, Oxford, BAR International Series.
Cuperly P. 1984, Introduction à l'étude de l'Ibâdisme et de sa théologie, Alger, Office des Publications Universitaires.
Despois J. Le Djebel Nefousa (tripolitaine), étude géographique, Paris, Éditions Laros, 1935.
Donadieu C. / Didilon H. et J. M. 1977, Habiter le désert, les maisons mozabites: recherches sur un type d'architecture traditionnelle présaharienne, Bruxelles, Éd. Pierre Mardaga, Coll. Architecture et Recherches.
Grabar O. Penser l'Art Islamique. Bibliothèque Albin Michel Idées, Paris, 1996.
Girard, R. La violence et le sacré. Paris, Grasset, 1971.
Lewicky T., 1971a, "The Ibadites in Arabia and Africa ", The Journal World History, (UNESCO), n° 13.
Lewicky T. "Al-Ibâdiyya", Encyclopedia Of Islam, New Edition, London, Leiden-Brill, 1971, vol. III, 1971.
Marçais G. L'art musulman, Paris, P.U.F., 1927.
Marçais G. Manuel d'art musulman, l'architecture : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile, Tome I : du IXe au XIIe siècle, Paris, Édition Auguste Picard, 1926-1927.
Mercier M. La civilisation urbaine au M'Zab, Étude de sociologie africaine, Alger, Éditions P. et G. Soubiron, 1932.
Mercier M., 1928, " Notes sur une architecture berbère saharienne," Hespéris VIII.
Mrabet R., 2002, MudawwanamasâjidJarba, Tunis, Wizârat al-thaqâfa, Al-ma'had al-waṭanîlilturâth.
Prevost V. Les Ibadites. De Djreba à Oman, la troisème voie de leIslam. Belgique, Fils d'Abraham, 2010.
Prevost V. Les Ibadites. De djaerba à Oman, la troisème voie de leIslam. Belgique, Fils d'Abraham, 2010.
Ravéreau A., 1981, Le M'Zab, une leçon d'architecture, Paris, Sindbad.
Ringgenberg P. L'univers symbolique des arts islamiques. L'Harmattan, Paris, 2012.
Stablo R. Les Djerbiens : une communauté arabo-berbère dans une ile de l'Afrique française, Tunis, S. A. P. I., 1941.
Talbi M. et plusieurs. Histoire générale de la Tunisie. Le Moyen-Age, Tome II. Tunis, Sud Editions, 2008.
Thiry J., 1987-1988, "Le Sahara libyen dans l'Afrique du Nord du VIIe au XIVe siècle", Thèse de doctorat de l'Université Libre de Bruxelles.

المقالات والدوريات العربية:

رياض المرابط. " القيمة الفنيّة والتاريخيّة لمساجد جربة "، *دراسات حول جزيرة جربة*، جمعية صيانة جزيرة جربة، 1996.

المقالات والدوريات الأجنبية:

Al-Halimi H. "Le mihrab d'UldjâitûKhodabânde et le nombre d'or" in Luqmân, n°2, printemps-été 1986, p. 66-70.
Grabar O. "Art et culture dans le monde Islamique", in Arts et civilisation de l'Islam, sous la direction de Hatsstein M. et Delius P., Koenman, 2000.
Prevost V. "La renaissance des ibadites wahabites à Djerba au Xème siècle", in FoliaOrientalia 40, Cracovie, p. 188-189.
Schacht J. " Notes Mozabites ", in Al-Andalus, vol. XXII, fasc.1, 1957.
Schacht J. "Sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le Sahara", in Travaux de l'Institut de Recherches Sahariennes XI, Alger, 1954, p. 16-17.
Snodgrass A. "Sur le symbolismespatio-temporel de la Kaaba", in Architecture, Time and eternity. Studies in the stellar and temporal symbolism of Traditionnal Buildings. Vol. 2, New Delhi, AdityaPrakashan, 1907.

رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه الأجنبية:

Al-Hariri, Ahkâm al-massâjid fil Islam, Riyad, Dârar-Rifâ'î. Alharthy S. H., 1992, "The Traditional Architecture of Oman: a Critical Perspective", Master Thesis, University of Arizona, 1990.

المعاجم والقواميس الأجنبية:

Künhel E., "Arabesque", in Encyclopédie de l'Islam, tome I.
King D. A. "Makka", in Encyclopédie de l'Islam, tome VI.
Baer E. " Zakhrafa ", in Encyclopédie de l'Islam, tome XI.
Albin M. Dictionnaire de l'Islam religion et civilisation, EncyclpaediaUniversalis, Paris, 1987.

قائمة الهوامش

[1]انظر في ذلك فرحات الجعبيري، نظام العزّابة عند الإباضيّة الوهبيّة في جربة، المعهد الوطني للآثار، تونس، 1975.

[2] سمي هذا النظام بنظام العزابة وأسسه العلامة الشيخ أبو عبيد الله محمد بن بكر النفوسيالفرسطائي وحفظ به الدين وجمع حوله الهيئات الإباضية في كل من جبل نفوسة وجربة ووادي أريغ و وارجلان ووادي ميزاب. وتنعقد مجالس نظام العزابةفيما بين خمسة عشرة يوما وثلاثة أشهر وينقسم إلى ثلاثة أطوار، الطور الإنشائي الذي يهتم بإنشاء القوانين التي تضمن وحدة القرى والطور التنفيذي الذي يسهر على تنفيذ قرارات النظام وتطبيق أحكامه والطور القضائي الذي يتكون من محكمة عليا لاستئناف الأحكام وتنفيذها.

[3]Stablo R., Les Djerbiens : une communauté arabo-berbère dans une ile de l'Afrique française, Tunis, S. A. P. I., 1941, p. 41.

[4]رياض المرابط ،مدوّنة مساجد جربة، تونس، المعهد الوطني للتراث، 2002.

[5]انظر في ذلك فرحات الجعبيري، نظام العزّابة عند الإباضيّة الوهبيّة في جربة، المعهد الوطني للآثار، تونس، 1975.

[6] Cf.Prevost V., "La renaissance des ibadites wahabites à Djerba au Xème siècle", in FoliaOrientalia 40, Cracovie, p. 188-189.

[7] Cf.Schacht J., "Sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le Sahara", in Travaux de l'Institut de Recherches Sahariennes XI, Alger, 1954, p. 16-17.

[8]Petherbridge G., "Vernacular Architecture in the Maghreb. Some Historical and Geographical Factors", in The Maghreb Review 3, Londres, 1981, p. 16.

[9]رياض المرابط ، " القيمة الفنيّة والتاريخيّة لمساجد جربة "، دراسات حول جزيرة جربة، جمعية صيانة جزيرة جربة، 1996.

[10]سورة آل عمران آية 96.

[11]Cf. Ringgenberg P. L'univers symbolique des arts islamiques. L'Harmattan, Paris, 2012.